الأنثروبولوجيا وجرائم الإبادة الجماعية

(القضية الأرمنية انموذجاً)

Anthropology and genocide
Armenian issue model

كلمة المفتاح : **الأنثروبولوجيا والإبادة الجماعية**

ملخص الدراسة

كانت التجربة النازية سببا مباشرا وراء ابتكار مصطلح "إبادة الجنس" وصياغة مفهومه الذي يرادف الإبادة الشاملة لجماعة بشرية ابادة منظمة بهدف الاجتثاث التام، بمبررات معينة يمليها القائمون على عمليات الإبادة وما يتخللها من ترويع وانتهاك وتقتيل...وقد شهد التاريخ الحديث عددا من عمليات الإبادة الجماعية في شتى الأصقاع كان أبرزها ما اقدم عليه الأتراك في الرابع والعشرين من نيسان ١٩١٤ من عمليات اعدام وتهجير ضد الطائفة الأرمنية انطلاقا من اعتبارهم (خنجرا في ظهر الدولة العثمانية) ،فبلغ عدد الضحايا قرابة ثلاثة ملايين من الأرمن كما تنص بعض الوثائق، وللباحثين في التاريخ أحقية اثبات هذا التقدير فضلا عن نوع العمليات المرتكبة بحق الأرمن ،على أننا في هذا البحث نميل إلى صحتها ، ولعل القارئ سيميل معنا إلى ذلك، ركونا إلى قوة الأدلة المعتمدة، وقد قدم بحثنا هذا رؤية تحليلية بمنظار أنثروبولوجي لدافعية جرائم الإبادة الجماعية فضلا عن مناقشة النظرية العثمانية (الخنجر في الظهر) المبررة لتلك الجرائم ، ولعل منهجيتنا في الطرح والتحليل تصلح انموذجاً لدراسة موضوعة هذا البحث في مجالات مكانية وزمانية أخرى في تاريخنا المعاصر، كالبوسنة والهرسك وبورما والعراق وغيرها لنقف على دافعية هكذا جرائم ومقومات استمرارها للوصول إلى سبل إنهائها في عالم بلغ من الرقي التقني والعلمي شأناً كبيرا يفترض تناضره الأخلاقي مع هذا المبلغ.

المقدمـــــة

يستذكر الأرمن في العالم، وكثير من المنظمات الدولية والتشكيلات الثقافية ، في الرابع والعشرين من شهر نيســـان سنويا ما عرف بالإبادة الجماعية (الجينوسايد) ضدّهم أبان نهايات العصر العثماني التي شغلت وما زالت تشـــغل الهيئـــات الدولية لما تركته من آثار ما زالت فاعلة.

يحأول هذا البحث تقديم تعريف مقتضب لمفهوم (الجينوسايد) مسلطاً الضوء على جانب من تاريخ هذه القضية بحسب مـــا توافر من وثائق يكون للمتخصصين في التاريخ أحقية اثباتها. وقد ناقشت بمرجعية إنثروبولوجية دافعية الجينوسايد باســـتقاء بعض الأمثلة لعلها تكون توطئة لدراسات أوسع.

وقد قسم هذا البحث على مباحث ثلاث تنأول الأول التعريف الإصطلاحي والمفاهيمي باستقصاء جذور الاستعمال وتطورها حتى الإستقرار على الإصطلاح الأخير في القانون الدولي، أما المبحث الثاني فناقش بنيوياً نظرية (الخنجر في الظهر) التي برر العثمانيون بها ما ارتكبوه ضد الأرمن ، أما المبحث الثالث فجاء محللاً بمنظار إنثروبولوجي لجرائم الإبادة الجماعية.

المبحث الأول

التأصيل الاصطلاحي

إن مصطلح الجينوسايد إبتدعه (رافائيل ليمكين)، واستعمل للمرة الأولى في إتهام مجرمـــي الحـــرب الرئيســـين في (نورمبورغ) في سنة (١٩٤٥م). إن تحاليل (ر.ليمكين) الشاملة لمختلف العناصر تتضمن (الإبادة الكاملة) التي تؤمن أساس المسودة الأولى للسكرتارية العامة. وفي الدعوى القضائية للجنة، كانت مسودة الميثاق قد نقحت تنقيحاً كبيراً نتيجة الصراع بين المصالح والقيم والنشاط الوقائي عن عدم السقوط. وبذلك ، فقد تصدع التعريف على نحو كبير مع بعـــض التنـــافر في مفهوم الأفعال المتصفة بأنها تشكل الجريمة والالتباس في التحديد الدقيق لطبيعة النية (على سبيل المثال: إبادة التجمع)، وتدخل فكرة تدمير الحياة الإنسانية ضمن العبارة "الكلي أو الجزئي). وعلى الرغم من ذلك، فأن نواة التعريف هي: النية لتخريـــب تجمعات بشرية قومية أو عرقية أو عنصرية أو دينية بقتل أعضاء تجمع بشري أو الإساءة إلى ظروف حياة تجمع بشري عـــن تعمد بغية إبادتها فيزيولوجيا، ستقبل على الأغلب بأنها جريمة إبادة الأجناس[1].

وهكذا، كانت التجربة النازية سبباً مباشراً وراء ابتكار ليمكين مصطلح "إبادة الجنس" وصياغة مفهومه: "تدمير أمة أو جماعة قومية" شريطة وجود خطة منظمة ومنفذة ترمي إلى افناء هذه الجماعة برمتها".

وعرف الإبادة الثقافية بأنها: "تدمير المؤسسات الحيوية في حياة جماعة "، والإبادة البيولوجية بأنها: "منع التكاثر فيها". قسم ليمكين العملية الإبادية إلى مرحلتين، تركز أولهما على الإنتماء القومي للجماعة المقهورة وتفرض ثانيهما هوية المستعمر القومية. وتقتصر المرحلة الثانية على بقايا السكان الذين سمح لهم باليقاء داخل حدودهم بعد ترحيل السكان الأصليين وجلب مواطني دولة الاحتلال لشغل الأراضي الخالية. ويبرر ليمكين منحاه هذا بأن "المفاهيم الجديدة تتطلب مصطلحات حديثـــة"،

لذا فأن مصطلح **Denationalization** "التجريد من الهوية القومية" الذي تستعمله الادبيات المعاصرة لوصف تدمير نموذج قومي ما لا يعبر عن المعنى الدقيق لأنه لا يشير إلى تدمير البنية البيولوجية ولا إلى فرض النموذج القـــومي للمحتـــل. ويستعمل الكاتب هذا المصطلح للدلالة فقط على "الحرمان من الهوية القومية".

وانتقد ليمكين الادبيات التي استعملت مصطلحات مبتورة تقتصر على بعض سمات وظيفية عامة لمفهوم الإبادة مثل (الألمنة) **Germanization** و (المجرنة) **Magyrization** و(الطلينة) **Italianization** للإشارة إلى محاولة أمة واحدة لفرض نموذجها القومي على جماعة قومية أخرى تقع تحت هيمنتها. ويعتقد ليمكين أن هذه المصطلحات أيضاً لا تناسب فكرة الإبادة لأنها تركز بشكل رئيس على السمات الثقافية والاقتصادية والإجتماعية تاركة السمات البيولوجية.

وضرب مثلاً بأن ألمنة البولنديين وفقا لهذه المعايير سوف تعني الإبقاء عليهم كبشر وسيفرض عليهم فقط النموذج الألماني القومي. وصنف ليمكين أنماط الإبادات إلى ثلاثة أنواع بناء على نية الجاني. ففي النمط الأول كان القضاء على الضحايا من أمم وجماعات بالكامل، وقد ساد أبان العصور القديمة وتواصل حتى نهاية القرون الوسطى. وأستهدف النمط الثاني الذي أتسم به العصر الحديث تدمير حضارة ما دون محاولة القضاء مادياً على ذويها. ويستشف النمط الثالث من الإبادة "على الطريقة النازية" التي وقعت في ثلاثينيات القرن العشرين وجمعت بين النمطين القديم والحديث في استهدافها بعض الجماعات بالتدمير المباشر، وغيرها بالإستيعاب الذي يجهز على تميزها العرقي[٢].

واستعملت هنا تعريف (الأمم المتحدة) وأتخذته على أنه التعريف الشرعي المقبول، لأن (ميثاق الأمم المتحدة لمنع ومعاقبة جريمة إبادة الأجناس) يشتمل عليه وقد صدقته (٩٢) دولة ونقرأ فيه:

"في الميثاق الراهن، فأن جريمة إبادة الأجناس تعني أحد الفعال التي تقترف بنية التخريب الكلي أو الجزئي لتجمعات (أو مجموعات) بشرية قومية أو عرقية أو عنصرية أو دينية. على سبيل المثال:

أ. قتل اعضاء تجمع بشري.

ب. إلحاق أضرار جسدية وفكرية بالغة بأعضاء التجمع البشري.

ج. الإساءة إلى ظروف حياة تجمع بشري عن عمد وفيها التخريب الفيزيولوجي الكلي أو الجزئي.

د. فرض التدابير التي تتدي إلى منع الولادات في تجمع بشري.

ه. نقل الأولاد قسرا من أحد التجمعات البشرية إلى تجمع أخر.

المبحث الثاني

لمحات من إبادة الأرمن، والأطروحة التركية/ مناقشة بنيوية

خلال فترة الحرب العالمية الأولى قام الأتراك بالتعاون مع العشائر الكردية بإبادة مئات القرى الأرمنية شرقي البلاد في محاولة لتغيير ديموغرافية تلك المناطق لاعتقادهم أن هؤلاء قد يتعاونون مع الروس والثـــوار الأرمن. كما اجبروا القرويون على العمل كحمالين في الجيش العثماني ومن ثم قاموا بإعدامهم بعد انهاكهم. غير أن قرار (الإبادة الشاملة) لم يتخذ حتى ربيع ١٩١٥، ففي ٢٤ نيسان ١٩١٥ قام العثمانيون بجمع المئات من أهم الشخصيات الأرمنية في إسطنبول وتم إعدامهم في ساحان المدينة[٣].

بعدها أمرت جميع العوائل الأرمنية في الأناضول بترك ممتلكاتها والانضمام إلى القوافل التي تكونت من مئات الآلاف من النساء والأطفال في طرق جبلية وعرة وصحراوية قاحلة. وغالباً ما تم حرمان هؤلاء من المأكل والملبس. فمات خلال حملات التهجير هذه حوالي ٧٥% ممن شارك بها وترك الباقون في صحاري بادية الشام[٤].

ويروي أحد المرسلين الأمريكيين إلى مدينة الرها ((خلال ستة أسابيع شاهدنا أبشع الفضائع تقترف بحق الآلاف ... الذين جاؤوا من المدن الشمالية ليعبروا من مدينتنا. وجميعهم يروون الرواية نفسها: قتل جميع رجالهم في اليوم الأول من المسيرة، بعدها تم الإعتداء على النسوة والفتيات بالضرب والسرقة وخطف بعضهن حراسهم... كانوا من أسوأ العناصر كما سمحوا لأي من كان من القرى التي عبروها باختطاف النسوة والإعتداء عليهن. لم تكن هذه مجرد روايات بل شاهدنا بأم أعيننا هذا الشيء علناً في الشوارع[٥].))

ويعتمد الأتراك على مقولة (الخنجر في الظهر) أي مسؤولية الأرمن السابقة على ما تعرضوا له من تنكيل، كتبرير لذلك، وقد نشر الباب العالي عام ١٩١٦م كتابا أبيض يتكلم عن أعمال اللجان الثورية الأرمنية قبل إعلان الدستور وبعده. ويتضمن هذا الكتاب مقتطفات من نصوص نشرها الثوريون الأرمن خلال نضالهم ضد عبد الحميد الثاني، أي عندما كانوا متحالفين مع جمعية تركيا – الفتاة[٦]. وفي نهاية العام ١٩١٧، بسبب كون الجهة القوقازية تحت سيطرة جنود مناصرين للأرمن وكون مدن وقرى تركية تعرضت إلى التدمير والمجازر، فقد أستغلت الحكومة التركية هذه الجرائم لإدخال معطى جديد في إطروحتها: الفضائع الأرمنية. لكن في العام ١٩١٩–١٩٢٠ بمناسبة محكمة القسطنطينية تم دحض المزاعم التركية القائمة على إنكار النوايا الإجرامية المسبقة، وذلك عندما أعترف الصدر الأعظم أمام مؤتمر السلام: (خلال الحرب، إهتز ضمير كل العالم المتحضر تقريباً امام الجرائم التي أقترفها الأتراك، ولا أفكر أبداً بإنكار هذه الجرائم التي من شأنها أن تهز الضمير الإنساني إلى الأبد. ولا أبحث عن تخفيف درجة إجرام مرتكبي هذه المأساة الكبرى. ما أريده هو أن أبين للعالم، مع كل الحجج والدلائل، عن المرتكبين الحقيقيين لهذه الجرائم الفظيعة... أرشيفنا بات مفتوحاً أمام أي تحقيقي كفيل بتأكيد ما تشرفت بإعلانه أمام المحكمة العليا). وفي ٢٥ حزيران ١٩٢٠ أعلن أمام مؤتمر السلام اعترافه بمبدأ التعويض عن الخسائر الناجمة عن الأفعال المخالفة لحقوق الإنسان. وعن عدم تضامنه مع الأعمال من قبل "فئة ثورية عصفت بتركيا[٧] ". وعندما

سيطر مصطفى كمال على الحكم، وهو الرافض لاقتطاع أي أرض من تركيا، كان أول ما قام به هو محو آثار محكمة القسطنطينية ووضع حد لكل هذه الأعمال القضائية، وقد أكد الكماليون على نقطة مشتركة واحدة بين الأطروحات التركية: المسؤولية الأرمنية[٨].

إن المتتبع لدور الأرمن الإبداعي في البلدان التي قطنوها تثبت بقوة صارخة إخلاصهم للشعوب التي إحتضنتهم وتفانيهم في الحفاظ على تلك البلدان بما قدّموا من إسهامات كبيرة مميزة، ولعلَ النماذج الأتية مصداق لذلك، وتقويض لإدعاء مقولة (الخنجر في الظهر) التي حاولت تبرير إبادتهم، وقد ثبت كثير من الباحثين في تاريخ الأرمن السابق على الإبادة واللاحق كثيراً من الشواهد الدالة على ذلك ، منها دورهم في مساندة الدولة الفاطمية التي كادت تسقط لولا دور القيادة العسكرية التي تولاها بدرالدين الجمالي الذي كان والياً على الشام عام ١٠٦٧م في عهد المستنصر الفاطمي، فقد شبت في عهده نار الفوضى في مصر، فعينه المستنصر أمير الجيوش، وفي مدة قصيرة شكل جيشاً قوياً وأدب الفوضويين، وطد السلم وأشتغل في ترقية الحالة الاقتصادية والترفيه عن الفلاح، أنشأ من الأرمن فرق المشاة والخيالة تحت قيادة الأرمن أنفسهم وذلك لسلامة البلاط، وكان بدرالدين قائداً من القواد الفاطميين، ووزيراً من وزرائهم، وكانت الدولة الفاطمية التي بلغت درجة كبيرة من الرقي على وشك الإنهيار في عهد الخليفة الضعيف المستنصر (٤٢٧-٤٨٧هـ=١٠٣٦-١٠٩٤م)، فقد كان السلاجقة يزحفون على الشام والمماليك الأتراك يقاتلون الجنود من السودان في مصر، وحل بالبلاد القحط دام سبعة أعوام إستنفد موارد البلاد، وقضت المنازعات على هيبة الدولة وسلطانها، وطاح الجوع والمرض بالناس وذهبت أعمال التخريب والعنف بما كان للدولة من إزدهار وخيلَّ للناس أن هذه الدولة سيعصف بها الإضطراب والفوضى، ولكن القائد الشامي بدرالدين الجمالي تولى قيادة الجند والأشراف على شؤون الحكومة بدعوة من الخليفة فأعاد الأمر إلى نصابه بمجهود كبير لم يخل من الصرامة. والحق أن الدولة الفاطمية دخلت بذلك في طور جديد من أطوار عزها[٩].

أما في إيران، فأن الشاه عباس الأول كان ذا فطنة ودهاء سياسي، وهمة عالية. كان همه الثأر من العثمانيين الذين كانوا السبب في تأخر الفرس، فأحتل منهم أرمينيا ونقل الكثيرين من الأرمن إلى بلاد فارس لتعمير المملكة وترقيتها وإعطاء إمتيازات خاصة، ولقد اغتنم فرصة نقمة الشعبين الأرمني والكردي ففتح لهما أبواب بلاده، وبجيش عظيم إستولى على أذربيجان وولايات قارص وأرارات الأرمنية. هز خبر الحرب الفارسية التركية المحافل العثمانية في الإستانة، وكان السلطان أحمد الأول قد تبوأ العرش حديثاً، فنظم جيشاً لجباً بقيادة سنان باشا وسَيره إلى فارس، وأدرك الشاه أنه لا قبل له بمجابهة هذا الجيش، فقرر أن يسلم بلاده للعدو اطلالاً وخرائب. وبدلاً من أن ينصرف الشاه عباس إلى الحرب فأنه أهتم بنقل الأرمن إلى إيران وكان معجباً بذكائهم وفعاليتهم ومهارتهم الفنية والصناعية خصوصاً، وصرف مبالغ طائلة لجلب قلوب الأرمن. وحين وصوله إلى جلفا أضافه أمير أرمني يدعى خاجيك، فأكل مع الأرمن وشرب معهم حتى أنه تناول لحم الخنزير وجرع المسكر وصلى أمام صور القديسين، وأسترحمه كبار الأرمن أن يعدل عن منهاجه في نقل الأرمن إلى فارس، ولكن محاولاتهم ذهبت أدراج الرياح. لم يغير الشاه عباس منهاجه، وطفق يحرق المدن والقصبات والقرى مع الكنائس والأديرة من قارص إلى نهر آراس وينقل الأرمن الذين فيها إلى إيران. إن عمل الشاه هذا كان ناشئاً عن حبه وتقديره للأرمن، ولكن أسيء استعماله فعاد عليهم بالخسارة، إذ أنه عين أمر غوتا للقيام بالتسفير فطبق الأمر بغلظة وقسوة وضيق عليهم الخناق نظرا إلى سرعة الحركات الحربية العثمانية وإقتراب العثمانيين من بلادهم. وبلغت الشدة والقسوة منتهاهما في أولئك الفرس الذين يسوقون الأرمن،

وحلت الفاجعة الكبرى حين بلغو نهر آراس من قلة وفقدان وسائط المرور، فلقد إمتنعوا عن عبوره سبحاً، فكانت السيوف تنزل على أعناقهم وغرق عشرات الألوف منهم وهم يشهدون مصارع بعضهم، وكان سرعة جريان مياه النهر تدفعهم إلى أعماق البحر، وتمت هذه الهجرة سنة ١٦٠٥م[١٠].

ونقرأ في جريدة فرانكوفرتير جايتونك الألمانية مايلي "لقد قتل أعظم سند للحكومة الإيرانية وأبرع شخصية فذة فيها بعد أن صد حملات سالار الدولة ونجح في رد الشاه المخلوع ومنعه من دخول العاصمة الإيرانية، ومما هو حري بالذكر أنه (أي بيرم) لم يكن إيرانيا بل أرمنياً مسيحياً، وقد تمكن –كمدير عام للأمن– بنبوغه الممتاز من أن يقر الأمن والسلام في العاصمة وفي أرجاء المملكة، كان يلبي النداء فوراً عندما يدعوه الواجب إلى ساحات الوغى وكان قائداً مثقفاً بعيد النظر جهز جيشه بالأسلحة الحربية الجديدة ونهج النظام العَسكري الحديث. ولم يكن في يمين الحكومة الإيرانية سيف أقطع من بيرم خان في الصدق والمعرفة، فموته خسارة إذ يعز وجود نظير له مضاء عزم قاوم سالار الدولة ويصمد لغزواته المتوالية، وبضياع بيرم خان فقدت إيران آخر أمل بتنظيم أمورها ومقاومة روسيا ولو بصورة مؤقتة"[١١].

وفي الفترة التي بدأت بالقرن السادس عشر وحتى القرن الرابع الميلادي حدث نشاط فكري وعلمي أرمني ضخم حيث أنشئت العديد من مراكز التعليم العالي في كل من آني، أرجينا، غارس، كامرجاتزور، ساناين، هاغبات، داتيف، ناريكافانك، كاجافانك، هاغارتزين، نوركيدبيك، كايناداتزور، أيرفانك وكلاتزور ومناطق أخرى.

وأستمرت النهضة العلمية والفكرية الأرمنية خلال العصور الوسطى، فقد تم إنشاء مراكز للتعليم والتلقين، ومن أهمها جامعات كلاتزور وداتيف اللتان فتحتا أبوابهما خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين، ويصفهما المفكرون المعاصرون بأنهما كانتا تمثلان عاصمة الحكمة، وكانتا على مستوى الجامعات الأوروبية آنذاك مع اختلاف اللغة التي يتم التدريس بها وحيث كانت اللغة اللاتينية آنذاك هي لغة التعليم في الجامعات الأوربية، بينما كانت اللغة الأرمنية هي لغة التعليم في الجامعتين الأرمنيتين كلاتزور وداتيف. ومع مطلع العصر الحديث إستقبلت العديد من الجامعات الأوربية في سان بطرسبورغ، موسكو، برلين، باريس وجنيف العديد من الدارسين الأرمن الذين أضحى بعضهم من كبار العلماء خلال القرن التاسع عشر[١٢].

المبحث الثالث

الاتجاهات الإنثروبولوجية في تفسير الجينوسايد

برز في الأنثروبولوجيا النفسية مقترح علمي يعتمد على أساس إحصائي (تكراري) هو الشخصية التكرارية **Modal Per** ليشير إلى تلك القيمة الخاصة (المتغير) ليكون متميزاً بأعلى درجات التكرار في توزيع إحصائي معين. وهذا هو المتغير يكون متميزاً من الناحية النظرية. ويستعمل الأنثروبولوجيون مصطلح الشخصية التكرارية في الإشارة إلى أسلوب يظهر سمات الشخصية الشاملة لأعضاء مجتمع يخضع لحضارة واحدة وبصيغة تنطوي على قيمة مركزية في توزيع تكراري معين[١٣].

انقسم الإنثروبولوجيون فيما بينهم إلى فريقين عند دراسة موضوع الإبادة الجماعية، أتجه الأول نحو الجانب الطبيعي (الفيزيقي) للإنسان وعلى وجه الخصوص، انثروبولوجيا الطب العدلي (**Forensic Anthropology**) التي تعمل على تحليل الهيكل العظمي أو رفاة الأجساد البشرية المطلوبة لإثبات أن الإبادة الجماعية قد حدثت بالفعل من خلال الكشف عن عمر وجنس الضحايا، وبيان وطريقة الوفاة، وتوثيق الأذى الأخير أو الصدمة الأخيرة السابقة للموت التي من شأنها جميعا توفير الدليل الأكثر إقناعاً لعمليات الإبادة الجماعية بدلاً من أن يكون التحليل على أساس الصراع بين إثنين من الجماعات المسلحة. وتعد دراسة (**Clea Koff**) المنشورة عام(٢٠٠٤م) الموسومة بـــــــــــــــ(عظمة النسوة **The Bone Woman**) واحدة من الدراسات التي وظفت أنثروبولوجيا الطب العدلي عند دراسة الهياكل العظمية ورفات الأموات في رواندا في أعقاب الحرب التي نشبت بين الهوتو (**Hutu**) والتوتسي (**Tutsis**) . ولن يكون متوقعاً أن تجد الأجساد التي تفتقر للجروح الدفاعية في المقابر أو أن عدداً كبيراً منها قد قتلت من الخلف ومن فوق، وإلا سيكون متوقعاً بأن يتم العثور على الكثير من النساء والأطفال والرجال المسنين في القبور بعد إنتهاء النزاع، لاسيما في قبور السكان أنفسهم من المقاتلين والتي تم سحبهم منها.

وعلى العموم، تأمل لماذا عدد قليل جداً من الأجساد قد عرضت أو وضحت جروحاً دفاعية (الكلام لـــــــــــــــ **Koff**) لأن هؤلاء الناس لم يقاوموا أو لم يبدوا أي إعتراض، ولم يرفعوا أسلحتهم لحماية رؤوسهم. إذ من الحالات الـــــــــــــــ (٧١) التي تم إخضاعها للإختبار كانت الغالبية العظمى من النساء والأطفال الذين كانت بسبب الوفاة هي الجروح العنيفة الفظة... كنت أعرف أن مقدار القوة المستعملة التي ضربت الكبار والأطفال على مستوى أو وتيرة واحدة، أي لم تكن متغيرة تبعا لاختلاف العمر، إذ أن بعض جماجم هؤلاء الأطفال التي لم تذوب بعد مقطعة الأوردة الخارجية والداخلية لقحف الجمجمة، تماماً مثل البالغين[١٤].

خلال الشهر الماضي ورغم مشاغلي الأخرى في متابعة المحنة العراقية، قرأت كتابين مهمين باللغة الانكليزية ، أعتقد أنهما غير مترجمين إلى العربية، لأن نشر هكذا كتب تنويرية في البلاد العربية يعتبر مغامرة إنتحارية وذلك بسبب الحضر على الفكر التنويري وسيطرة السلفيين والتطرف الإسلامي على النشر في هذه البلدان. مؤلف الكتابين هو عالم الأنثروبولوجيا الأمريكي جارد دايموند (**Jared Diamond**) في كتابه (صعود وسقوط الشمبانزي الثالث)[١٥].

إن الإنسان يشترك مع القردة في تطوره بأصل واحد. وأقرب القردين لنا من ناحية التطور والتشابه البايولوجي هما: الشمبانزي والغوريلا، لذا فالإنسان عبارة عن شمبانزي ثالث، كما يقول المؤلف. فنحن نختلف عن الشمبانزي بنسبة ١,٦% فقط من الجينات DNA (العوامل الوراثية) أي نشترك معه بنسبة ٩٨,٤% من الجينات، حيث إفترقنا عن الشامبانزي من الأصل المشترك قبل ٧ ملايين سنة. أما عن الغوريلا فنختلف عنه حوالي ٢,٣% من الجينات حيث إفترقنا عنه قبل ١٠ ملايين سنة.

يطرح المؤلف في المقدمة كيف يختلف الإنسان عن بقية الحيوانات كونه يمتاز بصنع الآلات ويمتلك لغة يتفاهم من خلالها مع الغير ويستفيد عن طريقها من خبرة الأخرين وبقدرته على التعلم والتأثير على البيئة والتكيف معها، وفي الفصول التسعة عشر التي تضمنها دفتا الكتاب، يناقش المؤلف كيف تطور الإنسان من حيوانات سحيقة في القدم في سلم التطور عبر عشرات الملايين من السنين، فإلى ما يقرب الـــــــــــــ٦٠ مليون سنة، كان هنالك للإنسان أصل مشترك مع فصيلة القرود.

وقبل ستة ملايين سنة حصل إنفصال بين كائن يشبه الإنسان الذي كان قائماً يمشي على رجلين وأنواع أخرى من القردة في أفريقيا. وقبل حوالي المليوني سنة ظهر Homo erectus أي الإنسان القائم ولكنه مازال يعتبر ضمن الحيوان من ناحية التصرف والسلوك والعيش. وقبل نصف مليون سنة، ظهر الإنسان العاقل (Homo sapiens) .

قبل نحو مائة ألف سنة بدأ الإنسان Homo sapiens في الهجرة من موطنه الأصلي، أفريقيا، إلى مناطق أخرى من العالم في عملية مطاردة الصيد، متوجهاً إلى منطقة الشرق الأوسط ومنها إلى أوربا وأسيا. فوصل إلى استراليا وغينيا الجديدة New Guinea قبل ٥٠,٠٠٠عام، وسيبيريا قبل حوالي ٢٠,٠٠٠عام، وإلى مختلف أنحاء أمريكا عن طريق سيبيريا–ألاسكا قبل ١٣,٠٠٠عام وكل أنحاء أمريكا الشمالية والجنوبية قبل حوالي ١١,٠٠٠عام، ومعظم جزر المحيط الهادي البعيدة قبل حوالي ٤٠٠٠عام.

كذلك حصل نمو في عدد السكان من حوالي بضعة ملايين قبل ٥٠.٠٠٠ عام إلى نصف مليار عام ١٦٠٠ م. ومع زيادة السكان ازدادت قابليتنا على التدمير بتطور وتحسن فنون الصيد خلال الـــــــــــ٥٠,٠٠٠ عاما الماضية، والتحسن في الأدوات الحجرية والتقدم في الزراعة خلال العشرة آلاف سنة الأخيرة وصناعة الأدوات المعدنية خلال ٦٠٠٠ سنة الأخيرة (ص٣١٨–٣١٩).

وقبل حوالي مائة ألف عام ظهر نوعان من البشر من Homo sapiens. أحدهما وجدت بقاياه في أوربا وفي الشرق الأوسط، ويسمى بإنسان النياندرتال وكان أضخم جسماً ودماغاً ورغم ذلك يعتقد أنه كان أقل ذكاء من الإنسان الأخر الذي هو سلفنا والذي سمي بـــــــــــــ كرو–مكنون Cro–Magnon نسبة إلى منطقة في ألمانيا التي تم إكتشاف متحجراته وآثاره فيها. كما ويعتقد أنه منذ ٤٠,٠٠٠ عام بدأ الإنسان في إختراع اللغة وأكتشف النار بشكل تدريجي وبطيء جداً. إلا إنه كان مازال يعيش حياة التنقل وراء الفريسة وجمع الغذاء أي ما يسمى بـــــــــــــ Hunter–gatherer.

ومن هذه السلالة تطورت البشرية الحالية.... ويعتقد أن إنسان النياندرتال ما كان يعرف لغة فلم تتكون لديه المتطلبات البايولوجية والتشريحية لتساعده على النطق وقد إختفى من الوجود بالكامل قبل أربعين ألف عام ولم يجدوا له أثراً بعد ذلك التاريخ. ويعتقد علماء الآثار والأجناس أن إنسان الـــــــــــــ كرو–ماكنون هو الذي قام بإبادة الإنسان النياندرتال وذلك لما كان يتمتع به من ذكاء ولغة ونزعة القتل الجماعي. فليس هناك من تفسير آخر لإختفاء الإنسان النياندرتال غير إرتكاب أجدادنا عملية إبادة الجنس منذ ذلك الوقت.

وقبل ما يقارب ١٣ ألف سنة إهتدى الإنسان صدفة ودون وعي إلى بدايات الزراعة وتدجين الحيوان وتدريجياً بدأ في تكوين تجمعات صغيرة من حوالي ١٠–٢٠ شخصاً يعيشون في أكواخ بدلاً من الكهوف. وأول مكان ظهرت فيه هذه القرى هو منطقة الهلال الخصيب وخاصة وادي الرافدين وكذلك في الصين.

وتدريجياً حصل نمو في السكان. وبتعلم وتبني الزراعة وتدجين بعض الحيوانات، حصل نوع من الإستقرار التدريجي في قرى أكبر، ومنها تكونت القبيلة والمشيخة والمدينة التي تعتبر أصل تكوين الدولة، كما نعرف ذلك من تاريخ حضارة وادي الرافدين. ومنه انتشرت الحضارة والكتابة وإختراع الأدوات والقوانين.....إلخ.

الهجرة الأولى لأمريكا: يذكر الكاتب كيفية وصول الإنسان إلى أمريكا قبل حملة كريستفور كولومبوس عام ١٤٩٢م. إذ يعتقد العلماء أن الهنود الحمر أي سكان أمريكا الأصليين هاجروا إليها من سيبيريا كما أشرنا أعلاه، وهم أصلاً من المغول حيث يوجد تشابه كبير في الشكل بينهم وبين سكان منغوليا الذين كانوا ينتقلون وراء الصيد إلى أن وصلوا إلى سيبيريا ومنها إلى آلاسكا قبل ١٣ألف عام أي في نهاية العصر الجليدي الأخير وكان هناك جسراً أرضياً يربط سيبيريا بآلاسكا، والمغطى الآن بالماء وسمي بمضيق بيرنغ، حيث كان مستوى البحر أوطأ بكثير مما عليه الآن. ومنها توجهوا جنوبا ببطء أي بمعدل ٨أميال بالسنة وبعد عدة آلاف من السنين تكاثروا وغطوا كلاً من كندا وامريكا الشمالية والوسطى والجنوبية حوالي ٩٠٠٠ق.م. فعندما وصل الأوربيون إلى أمريكا كان السكان الأصليون حوالي ٢٠ مليون نسمة، تمت إبادة معظمهم إما عن طريق القتل أو نقل الأمراض التي لم تكن معروفة هناك قبل ذلك التاريخ لذا لم تكن لدى السكان مناعة ضدها، مثل الحصبة والجدري.

ويرجع المؤلف أغلب خصال الإنسان وقابلياته الإبداعية والتدميرية إلى جذورها الأصلية في الحيوان. فمثلاً فن الرسم يقول أن بعض الحيوانات تقوم برسوم بشكل غير واعي، ويأتي بأمثلة كثيرة ومثيرة أحدهما أن عرضت في معرض الرسم في نيويورك مجموعة من الرسوم لفنانين كبار، وكان هناك رسم وضعوا اسم سري لصاحبه. هذه اللوحة حازت بثناء واعتراف أشهر النقاد في الفن، وقد كتب أحدهم عن ذلك الرسم أن صاحبه يتمتع بأصالة وذوق رفيع، والقدرة على التعبير عن المشاعر الإنسانية الصادقة وانه أشبه بقطعة شعرية ولكن بأسلوب الرسم. في الحقيقة كان صاحب هذا الرسم هو فيل، حيث وضعوا في خرطومه فرشاة وامامه قطعة قماش، فصار عصبياً وراح يمرر الفرشاة بعصبية وعشوائية على قطعة القماش. ثم عرضوا هذه (الشخابيط) في المعرض لأختبار النقاد. ففاز الرسم بأفضل تقييم!!

كذلك اللغة، إذ يخصص المؤلف فصلاً كاملاً عنها ويقول أن هناك لغة تفاهم عند بعض الحيوانات والطيور. وكيف تطورت اللغات من جذورها الأصلية ومنها اللغات الأوربية–الهندية و السامية. ويعرف ذلك من تشابه الكثير من المفردات

فيما بينها. وعن طريق دراسة هذه اللغات يمكن معرفة أصول بعض الشعوب من أين جاءت. مثل أصل السكان في جزيرة مدغشقر من أندونيسيا وافريقيا.

ويخصص المؤلف فصلاً كاملاً عن جريمة القتل الجماعي أو ما يسمى بإبادة الجنس **Genocide**. يرى الباحث أن نزعة إبادة الجنس عند الإنسان لها جذورها في الحيوانات. وأقرب حيوان لنا هو الشامبانزي. وهذا الحيوان يعيش على شكل تجمعات، حوالي ١٠-٢٠ فرداً، متمسكة بحصتها من الأرض **Territorial** في الغابة تستميت في الدفاع عنها. وغالباً ماتحصل حروب بين الجيران، إذ تقوم مجموعة من الشمبانزي بالهجوم على مجموعة مجاورة ترتكب ضدها عملية الإبادة الجماعية للأستحواذ على حصتها من الأرض، ولكن ليس بنفس السرعة التي يقوم بها الإنسان، ربما لافتقارهم إلى أدوات القتل. فقتل عشرة من افراد مجموعة العدو من الشمبانزي يتم على مراحل تستغرق عدة سنوات، وعندما يتم قتل أخر فرد، تسيطر العصابة المنتصرة على أرض المجموعة المبادة. والجدير بالذكر أنهم (الشمبانزي) مثل الإنسان، يقتلون الذكور دون الإناث حيث يتخذونهن سبايا لممارسة الجنس معهن (ما ملكت أيمانكم)!!

والإنسان "المتمدن" أوجد قوانين أخلاقية **Ethical Codes** تعامل الحيوانات بشكل مختلف يجوز معها إبادة الحيوانات دون عقاب أو تأنيب ضمير. لذلك فالمعتدون من البشر الذين يرتكبون جريمة إبادة الجنس يقارنون ضحاياهم دائما بالحيوانات لتبرير القتل. فالنازيون اعتبروا اليهود قمل دون مستوى البشر (**Subhuman Lice**)، والفرنسيون المستوطنون في الجزائر أيام الإستعمار كانوا يسمون الجزائريين بالفئران "والمتمدنون" من سكان البرغواي إعتبروا السكان الأصليين فئران مسعورة، والسكان البيض في جنوب أفريقيا إعتبروا السكان السود الأصليين قردة، والمثقفون في شمال نيجيريا نظروا إلى قبائل الإيبو كديدان. واللغة الإنكليزية غنية بأسماء حيوانية تستخدم للحط من قدر الإنسان الخصم، مثل قوله (الخنزير، قرد، كلب، ثور، جرذي،.....إلخ).

الخاتمة

شهد التاريخ الإنساني عدداً من جرائم الإبادة الجماعية وبإصطلاح أخر ما يمكن ان نطلق عليه جرائم الإستئصال البايو– ثقافي، ولكن الإتفاق على المفهوم لم يتبلور إلا أبان الأربعينيات من القرن العشرين بعد ما عرف بالهولوكوست ضد اليهود في ألمانيا، بيد أن الأسبقية الجرمية كانت للعثمانيين في بدايات العقد الثاني من القرن نفسه، وكان التباين في المواقف الدولية المعاصرة بإتجاه جينوسايد الأرمن كبيراً بمقابل الموقف التركي المصر على أنها لم تكن إبادة شوفينية بل كان الأرمن جزءاً من ضحايا الحرب. وبذلك، لابد للباحثين في الشأن الإنساني – وعلى الخصوص – في حقوق الإنسان من الركون إلى معايير موضوعية معتمدة علميا في إثبات إرتكاب الجينوسايد من عدمه.

وقد أسهمت شتى التخصصات في تناول موضوع هذه الدراسة على أننا نثبت تأخر الأنثروبولوجيا في موقفها من الموضوع.

وانتهجت هذه الورقة رؤية بنيوية للوقوف الموضعي على الجينوسايد، ولا سيما في المجال الأنثروبولوجي بقسميه الثقافي والطبيعي (الفيزيقي).

هوامش البحث

(١) مجموعة من الباحثين، جريمة الصمت: جريمة إبادة الجنس الأرمني، ترجمة: هوري عزازيان، اللاذقية، دار الحوار للنشر والتوزيع، ١٩٩٥، ص٢٣٤-٢٣٥.

(٢) د.محمد رفعت الأمام، إبادة الجنس البشري ١٩٤٦-١٩٤٨، القاهرة، دار نوبار للطباعة، ٢٠٠٧، ص١٨-١٩.

(3) **Akcam, Tanner: A shameful Act: The Armenian Genocide and the Question of Turkish Responsibility, transl. Paul Bessemer, Metropolitan Books, New York. 2006 p 27.**

(4) **Ibid, p 31.**

(5) **Constitutional Rights Education Forgotten Genocide: The Destruction of the Armenians during World War I, on the web http://en.wikipedia.org/wiki./**

(٦) د.غسان العزي، المجزرة الرمنية (١٩١٥)، بيروت، مركز الدراسات الأرمنية، ١٩٩٧، ص٧٤.

(٧) د.غسان العزي، المصدر نفسه، ص ٧٥ .

(٨) د.غسان العزي،المصدر نفسه، ص ٧٦.

(٩) د.ك.ل.استارجيان، تاريخ الأمة الأرمنية، الموصل، مطبعة الأتحاد الجديدة، ١٩٥١، ص ١٧.

(١٠) د.ك.ل.استارجيان، مصدر سابق، ص٢٥٦-٢٥٧.

(١١) د.ك.ل.استارجيان، مصدر سابق، ص ٣١ .

(١٢) د.أحمد فؤاد رسلان، أرمينيا، الأمة والدولة، القاهرة، دار الأمين، ط١، ص٢١١.

(13) **Kardiner, Abram,The Psychological Frontiers of Society, Colombia university Press, New York,X953, P247**

(١٤) د.ياس خضر عباس العباسي، واقعة الطف ومفهوم الإبادة الجماعية (بحث في الأنثروبولوجيا التطبيقية) (غير منشور)، بغداد، الجامعة المستنصرية، ٢٠١٢، من ص٨-١٠.

(15) **htt p://www.a hewar.orgldebat/show.a rt.asp?a id=23618, The Rise and Fall of the Third Chimpanzee U.S.A. NY 1992. P27.**

Abstract

The experience was Nazism direct cause behind the innovation of the term "genocide" and to formulate his concept, which is Synonymous with the mass extermination of human group Genocide organization with the aim of ablation full, the Rationale for certain dictated by organizers of the genocide and Punctuated by intimidation and the violation and the killing "'Has seen a recent history of a number of genocide collective in Various flung most notably the oldest upon the Turks in the Twenty-fourth of April 1914 of executions and the displacement Against the Armenian community out of mind (a dagger in the Back of the Ottoman Empire), bringing the number of victims, Nearly three million Armenians also provides some of the Documents and researchers in history eligibility prove this Estimate as well as the type of operations committed against The Armenians, we in this research tend to her health, and Perhaps Alqre Smeal us to it, Rcna to the strength of the Evidence-based, has provided our present analytical vision lens Anthropological to the motivation of the crime of genocide as Well as a discussion of the theoretical Ottoman (dagger in the back)justifying these crimes, and perhaps our methodology in subtraction and analysis suitable model to study placed this research in the areas of spatial and temporal other in our contemporary history, such as Bosnia and Herzegovina, Burma, lraq and others to stand on the motivation of such crimes and the elements of continuity to reach the ways to end it in a world that has reached the technical and scientific progress with this amount consolidated text is supposed great moral .

المصادر

١.نخبة من الباحثين والعلماء، جريمة الصمت: جريمة إبادة الجنس الأرمني، ترجمة هوري عزازيان، اللاذقية، دار الحوار للنشر والتوزيع، ١٩٩٥.

٢.محمد رفعت الإمام، إبادة الجنس البشري ١٩٤٦-١٩٤٨، القاهرة دار نوبار للطباعة،٢٠٠٧.

٣.غسان العزي، الجزرة الأرمنية (١٩١٥)، بيروت، مركز الدراسات الأرمنية ١٩٩٧.

٤.ك.ل.استارجيان، تاريخ الأمة الأرمنية، الموصل، مطبعة الإتحاد الجديدة، ١٩٥١.

٥.أحمد فؤاد رسلان، أرمينيا، الأمة والدولة، القاهرة، دار الأمين ، ط١، ١٩٩٧.

٦.ياس خضر عباس العباسي، واقعة الطف ومفهوم الإبادة الجماعية (بحث في الأنثروبولوجيا التطبيقية)، بغداد، الجامعة المستنصرية،٢٠١٢.

7. Kardiner, Abram, The Psychological Frontiers of Society, Colombia University Press, New York, X953.

8.http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=23618 The Rise and Fall of the Third Chimpanzee U.S.A. NY 1992.

9. Akham, Taner: A Shameful Act: The Armenian Genocide and the Question of Turkish Responsibility, transl. Paul Bessmer ,Metropollitan Books , New York.2006.

10. Constitutional Rights Education Forgotten Genocide": The Destruction of the Armenians During World War I , on this web http://en.wikipedia.org/wiki/.